الأستاذة: كعبش ريمة

المقياس:نقد أدبي معاصر

السنة: الثانية ليسانس

التخصص: دراسات لغوية

بتاريخ:07 -04-2021

التطبيق الرابع:

النقد البنيوي

(كمال أبو ديب أنموذجا)

1- التعريف بالناقد كمال أبو ديب:

كمال أبو ديب كاتب و ناقد سوري ولد في مدينة صافيتا في جبال الساحل السوري عام 1942،

و يعتبر واحدا من ألمع النقاد و الباحثين و أعمقهم تأثيرا في الدراسات النقدية. و قد وصف بأنه أحدث ثورة جذرية في النقد العربي و الثقافة العربية، و احتفل بأبحاثه الدارسون داخل العالم

العربي و في الغرب و جامعاته، و كتبت عنه عشرات الأبحاث و الكتب و الأطروحات الجامعية. و قد فاز بعدد من أرفع الجوائز و منح البحث العلمي في العالم العربي و الغرب.

و هو يشغل منصب أستاذ كرسي العربية و آدابها (بروفسور) في جامعة لندن منذ عام 1992، بعد أن عمل باحثا و أستاذا في جامعات أكسفورد و كاليفورنيا (بيركلي) و كولومبيا (نيويورك)، و اليرموك و صنعاء.

له عدد من الكتب المشهورة و عشرات الأبحاث الرائدة في كتب و مجلات متخصصة بالعربية و الانجليزية، كما أن له حضوره و تأثيره البارزين في المجال الثقافي العام. و قد تم تكريمه في نيسان 2006 من قبل وزارة الثقافة اليمنية و ملتقى الشعراء العرب الشباب في مهرجان كبير ضم نقادا بارزين و شعراء من أقطار العالم العربي المتعددة.

و قد ترجمت بعض أعماله إلى لغات أخرى. و له أيضا ثلاثة دواوين شعرية آخرها عذابات المتنبي في صحبة كمال أبو ديب و العكس بالعكس 352 هجرية – 2005 ميلادية الذي صدر عن دار الساقي عام 1996.

حاز على عدد من الجوائز العالمية و العربية، و له عدد من الكتب باللغة الانجليزية منها: «نظرية الصورة الشعرية عند الجرجاني»، «حيرة من يعرف كل شيء»، «احتفاء بالاختلاف»، «الثقافة بين التشظي و التعدد»، و«مدخل بنيوي للنص القرآني».

و من أشهر كتبه باللغة العربية «في البنية الإيقاعية للشعر العربي»، «جدلية الخفاء والتجلي»، «الرؤى المقنعة»، «في الشعرية»، و«البنى المولدة في الشعر الجاهلي».

و قد ترجم عددا من الكتب إلى اللغة العربية من أشهرها كتابي «الاستشراق» و«الثقافة والامبريالية» للناقد ادوارد سعيد. و كان أصدر عددا من الكتب الإبداعية بين الرواية و الشعر منها «سماء بلا نجوم»، «بكائيات من مراثي ارميا»، «معلقة الأضداد» و«عذابات المتنبي».

و قد ساهم في كتابة و تحرير عدد من الموسوعات العالمية منها «الموسوعة الإسلامية»، «الموسوعة الإيرانية»، «تاريخ كامبرديج للأدب العربي»، «معجم أوكسفورد الانجليزي – العربي، «موسوعة ذا كوليج»، «وموسوعة الأدب العربي».

2- خصوصية النقد البنيوي عند كمال أبو ديب:

كان الدكتور كمال أبوديب من أوائل النقاد العرب المتحمسين للبنيوية و المعلنين صراحة أنه اتخذها منهجا نقديا شخصيا، فأصبح بذلك كمن يعلن صنف دمه النقدي، و راح يسعى من خلال تطبيقاته و تحليلاته للقصائد و دراسة الظواهر الفنية إلى تأكيد المستندات النظرية التي

جاءت بها البنيوية، ردا على هيمنة الانطباعية و اللامنهجية في الدراسات النقدية.

و في كتابه "جدلية الخفاء و التجلي" دراسات بنيوية في الشعر (1979)، اتضحت المنهجية الملتزمة من جانبه كما ينص العنوان الثانوي للكتاب، تأكيدا لهذا الإعلان المنهجي المبكر قياسا إلى الهبَّة البنيوية التي ستأتي من المغرب العربي عبر الترجمة، لتشيع في المشرق و تتعدد مناخاتها و تياراتها.

و لكن كمال أبوديب ينفي في مقدمة الكتاب أن تكون البنيوية (فلسفة)، كما وصلت عبر الترجمات و كما تطعّمت في الغرب بجداول من حقول معرفية مختلفة صبت في مجراها الأدبي، لكنها عنده "طريقة في الرؤية و منهج في معاينة الوجود". و لذلك فهي ثورة جذرية للفكر و الشعر معا، تمثل عنده ثالث الثورات الجذرية في الفكر الإنساني بعد نظرية ماركس في الجدلية و الصراع الطبقي، و ثورة بيكاسو في الفن التشكيلي و الكراسي التي رسمها فلم نعد نرى الكراسي كما هي عليه قبل رسمها، و البنيوية التي بمفاهيم التزامن و الثنائيات الضدية و العلاقات بين العلامات، تعمل على تحول الفكر و الشعر و تغييرهما، محتجا بما يراه في البنيوية من "صرامة و إصرار على الاكتناه المتعمق، و الإدراك متعدد الأبعاد، و الغوص على المكونات الفِعْلية للشيء، و العلاقات التي تنشأ بين هذه المكونات". و لعل مقولة (الاكتناه) هي من أكثر المفاهيم إلحاحا على كمال أبوديب في اشتغالاته النقدية بدءا من دراسته الأكاديمية عن الحداثة النقدية في التراث مجسدة في كتابي عبدالقاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، و مرورا بمراجعته للموسيقى الشعرية التقليدية و دعوته لدراسة البنية الإيقاعية في الشعر العربي لتقديم (البديل الجذري لعروض الخليل)، و قراءته للتراث الشعري القديم الجاهلي خاصة في كتابه "الرؤى المقنّعة" و اكتشاف (الوحدة الخبيئة) في القصائد التي تبدو متشظية.

كانت الميتافيزيقيا تلوّن مفهوم الاكتناه بما أنه غور على الجوهر و بحث في الأعماق، و ترافقه عبر تحولاته من البنيوية الصارمة في نموذجها اللساني . سوسير خاصة و جومسكي . إلى منهجيات ما بعد البنيوية كالقراءة و التلقي و إعادة الاعتبار لدور القارئ و ما يصبّه على المقروء من وعي و إدراك و تأويل و هو ماجسّده كتابه "في الشعرية" حيث تتردد أصداء فكر مدرسة كونستانس و نظرية الاستقبال، فتكون شعرية النص كامنة في الفجوة أو المسافة التي يخلقها بين كتابته وتلقّيه.

يتحدث أبوديب عن عملية متشابكة تحدث خلال القراءة النقدية أو (الإبداع النقدي) كما يسميه، حتى صار هدفه من دراساته "تأسيس شعريات جديدة تظل في حالة من التحول و تشكل فضاء إبداعيا تتشابك فيه بانتظام فوضوي أخّاذ شعريات الأبداع النقدي و شعريات الإبداع الشعري والسردي". وبتدشين دعوة كهذه لنص إبداعي نقدي هو جزء من اشتباك أو تشابك فضائي مع

إبداعات نصية أخرى، يتاح لذات كمال أبو ديب القارئة أن تظهر و بحضور كثيف، سواء بالطريق المعتاد في الخطاب النقدي، أي بحضور الذات كفاعل دلالي لفعل القراءة و المهيمن على الرؤية و الموقف و المنهج، أو بالطريق المقترح من أبو ديب، وهو . إضافة إلى الأول . الحضور الجثماني بالاسم و بالانطباع و مراقبة الذات و البوح بأسرارها أثناء الكتابة عبر تعليقاتها و تصحيحاتها، و حتى شطب ما تتفوه به، و إن ظل ذلك واضحاً للقارئ. وهو عمل ميتا نقدي تراقب فيه اللغة الشارحة نفسها، و تستدرك على ملفوظاتها و تقطع وظيفتها الوصفية أو التفسيرية.

لقد خرج أبو ديب – إذن– من عباءة المنهجية الصارمة بنيويا و نموذجها اللغوي المغلق ليرى أن النص النقدي "هو أيضا نشاط إبداعي ذو علاقة معقدة بالعالم الذي ينتج فيه، و بالنصوص التي يقوم بدراستها... و حتى حين يبدو النقد مستغرقا في رصد ظواهر قد تبدو.. شكلية خالصة، فإنه يمارس عملية اكتناه تتجاوز مستوى الشكل.. إلى عالم الدلالات الغني الغائر الخفي، أو على الأقل هذا مسار الجهد الذي أقوم به شخصيا، و الذي أسعى فيه إلى فهم الظواهر البنيوية في النص الأدبي، و علاقته بالبنية الكلية للنص من جهة، و بالعالم الذي أُنتج فيه النص من جهة ثانية، ثم إلى فهم العلاقة المعقدة بين النص ذاته، من حيث هو بنية كلية، بالعالم".

و لعل هذا الهاجس الاكتناهي كان وراء بروز ثنائية الخفاء و التجلي في الكتاب، و إسناد الدور الميتافيزيقي للنص النقدي و الشعري بالضرورة لأن الشعر هو أيضا كما يقول "فاعلية خلق و رؤيا متأصلة في الذات الإنسانية، و اكتناه للحظة التوتر بين الإنسان والعالم."

و يمثل خروج أبو ديب على النزعة الأكاديمية دعوة لرفض العزلة المدرسية و لوازمها المتعالية، فكان أبو ديب يعيش في القلب من حركة الحداثة العربية بتفاصيلها وموجاتها المتلاحقة، و متابعته للمستجدات في الكتابة الشعرية العربية.

أما ملاطفاته و استطراداته و نقده الشارح و اعتراضاته و إبدالاته المقترحة بين الأقواس و على الحواشي و هوامش الصفحات، فهي تجسيد لدعوته الآنفة لجعل النص النقدي متشظياً ممزقاً منشطراً مجنوناً، و في تفسير آخر تمثل لي شخصيا تلك الملاطفات و الاستدراكات (فوق . النصيّة) الشارحة محاولة لكسر غلاظة المتن النقدي و صلادته التي أسبغتها البنيوية عليه بلغتها الصارمة و آلياتها.

لقد كانت جدلية الخفاء والتجلي مقولة . لا عنوانا فحسب . لتوليد رؤيا نقدية قوامها فعل الاكتناه، التالي للاعتقاد بوجود بنيتين للنص الأدبي والشعري تحديدا، مادام أبوديب قد ظل في منطقة الشعر، تهمه منهما تلك العميقة التي لا تظهر إلا بالتحليل و الاكتناه.

هكذا صار هدف الكتاب كما تنص المقدمة هو "اكتناه جدلية الخفاء والتجلي و أسرار البنية العميقة و تحولاتها" مطورا بذلك ما جاء في النحو التوليدي التحويلي من تقسيم للبنية، و علاقة كل من القسمين ببعضهما و تحولهما. و يمكن أن نعد أبوديب أيضا من أوائل من قرنوا النظرية البنيوية بالتطبيق، و صرح في المقدمة بأن الدراسات ذات طبيعة تطبيقية متذرعا بما لم نوافقه عليه من أن القارئ العربي سيخفق في فهم الجهاز النظري للبنيوية و إدراك قيمتها الثورية، فكيف إذن سيدرك هذا القارئ التطبيقات و التحليلات التي سيقدمها الكاتب في ضوء النظرية التي تستعصي على الفهم؟ و كيف سيكون التعامل القادم للقارئ مع القصيدة كما لم يكن عليه قبل البنيوية إذا هو لم يدرك المحرّك الفاعل في التحولات النظرية وتجسيدها في النص النقدي؟ و هل سيكون الابتعاد عن الجانب النظري بإخفاء المراجع مثلا، و هو ما سنراه في كثير من أعمال أبو ديب، و منها مسألة بنيتي القصيدة السطحية و العميقة مثلا و التي أخذت عن جومسكي دون تصريح من الكاتب، و مثلها استعارة مصطلح الفضاء الدلالي من موريس بلانشو دون نسبته إليه، وما مر بنا من مفهوم الشعرية و بأنها حسب تعبير أبوديب تكمن في الفجوة. مسافة التوتر. و هي من توصلات آيزر و مدرسة القراءة و التلقي، لكن أبوديب يهمش المرجع لأسفل صفحة من كتابه، زاعما أن أدونيس حدثه عن كتاب لآيزر في الشعرية و القراءة دون أن يطلع عليه.

و إذا كان الجرجاني قد قاد أبوديب لاكتشاف العلاقات بين بنى النص الشعري فإنه يعترف في المقدمة بما وجد من علاقة بين فكر الجرجاني و سوسير حيث يقول "إن أهم أسس التراث اللغوي النابع من دو سسوسير هي جزء من التراث اللغوي العربي كما يتبلور في عمل ناقد فذ هو عبد القاهر الجرجاني"، و لكن ذلك الحماس البنيوي و البحث عن آباء عرب للنظرية البنيوية لن يمنع أن تكون رؤية أبوديب النقدية مولفة تتجاوز الانضباط البنيوي لمؤثرات ما بعد الحداثة و تفريعاتها المنهجية و وقوعه تحت تأثير التفكيك و نظريات ديريدا حول السلطة و المركز، ثم تعديلات إدوارد سعيد على الصلة بين النص و العالم، و التي عني بها أبو ديب حتى قبل نقله إلى العربية عددا من أعمال سعيد.

يفهم أبوديب التطبيقات و التحليلات بأبعد من مرماها المدرسي و النقدي العام، فكتابه عن الخفاء و التجلي ليس طموحا لفهم عدد محدد من الظواهر و النصوص رغم أن اختيارها منحاز لنظرية أبو ديب و رؤياه، بل إلى ما يسميه "نقل الفكر من فكر تطغى عليه الجزئية و السطحية و الوحدانية و الشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة المتقصية الموضوعية و الشمولية و الجذرية؛ أي إلى فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر".

لقد لاقى عمل أبوديب منذ مقترحه في البنية الإيقاعية و في جدلية الخفاء و التجلي عنتا كبيرا و استنكارا من أطراف بحثية و أكاديمية متعددة، و هو أمر متوقع في سياق التبشير بنبوءة منهجية ذات منظومة متكاملة عبر عنها المنهج البنيوي لا في النقد الأدبي فحسب، و لكن في فعل القراءة ذاته و التشكل النصي أولا. و كانت الدعوة المنهجية و لغة الدراسة و طرق التحليل هي أبرز ما هوجم من خلاله جهد أبو ديب، رغم ما قدم للتراث الشعري العربي فكانت قصائد أبي نواس و أبي تمام هنا جزءا من البحث عن ثنائية ما، و وصفها، و في جهده اللاحق في قراءة القصيدة الجاهلية بمعايير بنيوية تكتشف العلاقات لتصل إلى البنى العميقة المختفية تحت المعمار الفني و الهيكل البنائي للنص.

لقد كان جل ما قدمه أبوديب يهدف إلى هدم المراكز بشتى صورها خارج النص و داخله، و الإفصاح عن الذات الناطقة في النص النقدي و حضورها الفاعل خلاصاً من الصوت الذي تمثله الجماعة كسلطة، و انهيار جماليات الوحدة و الحلول الانصهاري لصالح جماليات التعدد و التشظي، و اكتشاف الوشائج بين الفنون، و ضرورة الحرية شرطا للكتابة. و تلك مطامح ما كان لها أن تمر دون معارضة، كونها تمثل موقفا ضد التيار السائد و عكس مجراه تماما، رغم ما شاب تجربة أبو ديب من ارتدادات و تقاطعات لاسيما في طور حماسته التبشيرية بالبنيوية.